

## مرحلة البدايات، (المتكلمون الأوائل من الإمامية)

لا بد أن نشير الى أن أتباع الدين الحنيف والأديان عامة يستدلون بالنصوص الدينية لاثبات عقائدهم ويرجعون لقادتهم لدفع الاعتراضات عليها. وقد أثارت الصلات بين المسلمين وغيرهم من ابناء الحضارات والشعوب الاخرى شبهات واستفهامات كان لا مفر من مواجهتها بالاستدلال العقلي لأن أولئك لم يكونوا يعتقدون بالنص الديني فلا يمكن الاستدلال عليهم بها ولا يسلمون لكلام الزعماء الدينيين ما لم يكن الاحتجاج مقنعا لهم وبأدوات يقبلونها ومشاركة بين عامة البشر ألا وهي الاستدلالات العقلية فلهذا وغيره من العوامل التي تقدم الحديث عنها نشأ علم الكلام الاسلامي تقريبا في الضربة المتأخرة للحكم الأموي سيما بعدما أشاع حكام بني أمية الجبر بين المسلمين ليبرروا سوء أفعالهم وينسبوها للقضاء والقدر ويبرئوا ساحتهم من التقصير والتعدي على حدود الله.

في مثل هكذا أجواء برزت جماعة تدافع عن الدين وتعود الى الأئمة لتستعين بهم في رد شبهات الزنادقة والمخالفين وكان منهم جماعة من أتباع أهل البيت عليهم السلام وبرز منهم أعلام عرفوا بالاحتجاج والكلام أذكر هنا بعضا منهم:

١- علي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى التمار، أبو الحسن، كوفي، سكن البصرة، وكان من وجوه المتكلمين من أصحابنا، كلف أبا الهذيل العلاف ١٣٥ - ٢٣٥ هـ والنظام ١٦٠ - ٢٣١ هـ . له مجالس وكتب منها: كتاب الإمامة، كتاب مجالس هشام بن الحكم.

٢- محمد بن علي بن النعمان بن أبي طريفة البجلي، أبو جعفر كوفي، يلقب مؤمن الطاق وصاحب الطاق ويلقبه المخالفون شيطان الطاق ... فأما منزلته في العلم وحسن خاطر، فأشهر وقد نسب إليه أشياء لم تثبت عندنا وله كتاب افعل لا تفعل ... وله كتاب الاحتجاج في إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، وكتاب كلامه على الخوارج، وكتاب مجالسه مع أبي حنيفة والمرجئة، وقال ابن النديم: وكان متكلمًا حاذقًا. وله من الكتب كتاب الإمامة، كتاب المعرفة، كتاب الرد على المعتزلة في إمامة المفضول، كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة.

### ٣- هشام بن سالم الجواليقي

أبو الحكم من الكوفة ومن المعددين في أصحاب الامامين الصادق والكاظم (ع) له آراء لم يوافقها عليها سائر متكلمي الشيعة. وصنف هشام بن الحكم كتابا في الرد على بعض عقائده.

### ٤- ابو جعفر بن قبة الرازي

محمد بن عبد الرحمن بن قبة الرازي من اوائل متكلمي الامامية كان في بادئ امره من المعتزلة ثم انتقل الى المذهب الشيعي الامامي وكان من تلامذة ابي القاسم الكعبي البلخي ثم أصبح من مخالفيه وصنف كتبا في الرد على الزيدية واثبات الإمامة أشهرها بعنوان الانصاف وهو الذي نقل عنه الصدوق في كمال الدين والمرضى في الشافي والفصول وابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة.

### ٥- النوبختيون

ومنهم ابو اسحاق ابراهيم بن نوبخت صاحب كتاب الياقوت في علم الكلام الذي شرحه العلامة ابن المطهر الحلي وهو من أقدم المصادر الكلامية وقد طبع باسم (أنوار الملكوت في شرح الياقوت) وعلى هذا الشرح تعقيب من ابن أخت العلامة الحلي السيد عميد الدين الأعرجي وهو أيضا مطبوع باسم (إشراق اللاهوت).

### ٦- هشام بن الحكم

أبو محمد، هشام بن الحكم الكندي، الكوفي، ثم البغدادي شيخ متكلمي الإمامية ورائدها. ولد بالكوفة، ونشأ بواسط ثم عاد إلى الكوفة فعاس بها، وكان له بها متجر ومتجر ببغداد، ثم تحول إلى بغداد سنة ١٧٩ فسكنها بصورة دائمة. لقي هشام الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام. قال فيه علماء الإمامية:

«كان ثقة في الحديث، حسن التحقيق (أي المعرفة والثبات) في مذهبه، فقيها، متكلمًا... حاذقا بصناعة الكلام، حاضر الجواب، ورويت عن الأئمة، الصادق، والكاظم، والرضا، والجواد، عليهم السلام مدائح له جلييلة، وأثنوا عليه ثناء وافرا».

وقال الشيخ المفيد: «وبلغ من مرتبته وعلوه عند أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام أنه دخل عليه بمنى وهو غلام، أول ما اختط عارضاه، وفي مجلسه شيو الشيعة كحمران بن أعين، وقيس الماصر، ويونس بن يعقوب، وأبي جعفر الأحول (مؤمن

الطاق). وهشام بن سالم، فرفعه على جماعتهم، وليس فيهم إلا من هو أكبر سناً منه. فلما رأى أبو عبد الله عليه السلام أن ذلك الفعل قد كبر على أصحابه، قال: هو ناصرنا بقلبه، ولسانه، ويده، وما يروى من قوله عليه السلام: هشام بن الحكم رائدنا، حقنا، وسائق قولنا، المؤيد لصدقنا، والدافع لباطل أعدائنا، من تبعه وتبع أثره تبعنا، ومن خالفه وألحد فيه عادانا وألحد فينا».

كان هشام بن الحكم متكلماً، قوي الكلام، بصيراً بالحجة والجدل، حاضر البديهة، قوي الذاكرة، عميق المعرفة، واسع الثقافة، متعدد الجوانب، كثير النشاط، مناظراً جديلاً، اتصل بعامة أصحاب المقالات، ومتكلمي الفرق مسلمين وغير مسلمين، وناظرهم، وتكلم معهم، بل وصادقهم، حتى ضرب المثل بصادقته وحسن صحبته لمن يصادقه وإن تناقضت آراؤهما.

وكان عبد الله بن يزيد الإباضي بالكوفة تختلف عليه أصحابه يأخذون عنه، وكان خرازاً شريكاً لهشام بن الحكم، وكان هشام مقدماً... تختلف عليه أصحابه من (الرافضة) يأخذون عنه، وكلاهما في حانوت واحد، على ما ذكرنا من التضاد في المذاهب من التشري (خارجي) والرفض، ولم يجرب بينهما مسابرة ولا خروج عما يوجبه العلم، وقضية العقل، وموجبات الشرع، وأحكام النظر والسير.

وما قدمناه من خلق هشام هو الذي أوجب أن يتحول اتصال أبي شاعر الديصاني - أحد مشاهير الزنادقة - بهشام إلى صداقة وصحبة بينهما، بعد أن كانت في أصلها صلة جدل ونظر ونقاس فيما كانا يختلفان فيه من وجهات الرأي والعقيدة. وربما سأله أبو شاعر أن يستأذن له في الدخول على الإمام الصادق عليه السلام.

ولكن هذا الخلق الرفيع تحول عند خصومه إلى طعن وتجريح، يقول الخياط راداً على من اتهم المعتزلة بأنهم أخذوا بعض آرائهم عن الديصانية: «بل المقروف (المتهم) بقول الديصانية شيخ الرافضة وعالمها هشام بن الحكم المعروف بصحبة أبي شاعر الديصاني...»

وبعد أن اعتقل الخليفة هارون الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام سنة ١٧٩هـ اضطر أن يهاجر إلى بغداد بصورة دائمة، وأن يلتجئ إلى يحيى بن خالد البرمكي الوزير العباسي الشهير، ليحتمي به، الذي يجب أن أنبه عليه أن هشام بن الحكم لم يكن موالياً للآراء الفلسفية - وخاصة اليونانية منها - التي كانت قد

وفددت حديثاً يومذاك إلى الرقعة الإسلامية، واستأثرت باهتمام كبير من قبل ذوي الشأن والسلطنة، خاصة البرامكة وبعدهم المأمون الخليفة العباسي، فإن المترجمين لهشام يذكرون: أن حب يحيى البرمكي لهشام، وإيواءه إياه وحمايته له لم يدوماً له.

لأن «يحيى بن خالد البرمكي كان قد وجد على هشام بن الحكم شيئاً، من طعنه على الفلاسفة..» ولهشام: «كتاب الردّ على ارسطاطاليس في التوحيد» وعلى نهجه سار بعض تلامذته في الرد على الفلاسفة.

خاصم المعتزلة هشاماً فافتروا عليه فصدّقهم خصومهم فيه، ولم يصدقوهم في غيره، ومن هؤلاء المعتزلة الذين ناظرهم:

عمرو بن عبيد التيمي البصري ثاني رائدي الاعتزال وداعيتها. اجتمع به هشام في جامع البصرة وتناظر معه في الإمامة، وكانت الغلبة فيها لهشام «فقطعه هشام» كما عبروا.

قال الشهرستاني: «وجرت بينه (بين هشام) وبين أبي الهذيل مناظرات في علم الكلام، منها في التشبيه، ومنها في تعلق علم الباري تعالى» ويحكي أحداها المسعودي ويقول في آخرها: «فانقطع أبو الهذيل ولم يرد جواباً».

وقد جرت مناظرة بين إبراهيم بن سيار، أبو اسحاق النظام البصري وبين هشام حول خلود أهل الجنة في جنتهم، وخلود نعيمهم لهم، حيث كان النظام ينكر ذلك، غلبه فيها هشام، وقالوا عنه أنه: «خالط هشام بن الحكم فأخذ عنه بعض آرائه».

### نسبة التجسيم إلى هشام بن الحكم،

أن الجاحظ هو أكثر من نشر وروج التجسيم عن هشام بين مؤرخي الفرق، فابن قتيبة، والأشعري، والتوحيدي و ابن حزم والشهرستاني، والنسفي، وابن الجوزي، وابن تيمية، وغيرهم قد نقلوا عنه مباشرة وبواسطة. يقول ابن الراوندي: والجاحظ ... إنما عمل على العصبية، وعلى طلب تأرأستأذيه (العلاف والنظام) من هشام بن الحكم.

### موقف علماء الإمامية من تلك النسبة،

وقد بحث علماء الإمامية - قديماً وحديثاً - حول الآراء التي نسبت إلى هشام ودافعوا عنه ونفوا نسبتها إليه، قال الشيخ المفيد: «إن الله تعالى عالم بكل ما يكون قبل كونه، وأنه لا حادث إلا وقد علمه قبل حدوثه ... وهو مذهب جميع الإمامية، ولسنا نعرف ما حكاه المعتزلة عن هشام بن الحكم في خلافه، وعندنا أنه تخرّص منهم عليه، وغلط ممن قلدهم فيه فحكاه من الشيعة عنه، ولم نجد له كتاباً مصتفاً ولا مجلساً ثابتاً وكلامه في أصول الإمامة ومسائل الامتحان يدل على ضد ما حكاه الخصوم عنه...».

ومنها ما ذكره الشريف المرتضى. علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦) قال ره: «... فأما ما زمي به هشام بن الحكم من القول بالتجسيم. فالظاهر من الحكاية عنه القول بـ «جسم لا كالأجسام». ولا خلاف في أن هذا القول ليس بتشبيه. ولا ناقض لأصل. ولا معترض على فرع. وأنه غلط في عبارة يرجع في إثباتها ونفيها إلى اللغة. وأكثر اصحابنا يقولون: إنه أورد ذلك على سبيل المعارضة للمعتزلة. فقال لهم: إذا قلت: إن القديم تعالى شيء لا كالأشياء. فقولوا إنه جسم لا كالأجسام. وليس كل من عارض بشيء وسأل عنه أن يكون معتقدا له ومتدينا به. وقد يجوز أن يكون قصد به إلى استخراج جوابهم عن هذه المسألة ومعرفة ما عندهم فيها. أو إلى أن يبين قصورهم عن الاتيان بالمقبول في جوابها. إلى غير ذلك مما لا يتسع ذكره.

فأما الحكاية أنه ذهب في الله تعالى أنه جسم له حقيقة الأجسام الحاضرة. وحديث (الأشبار) المدعى عليه فليس نعرفه إلا من حكاية الجاحظ عن النظام. وما فيها إلا متهم عليه غير موثوق بقوله.

ومن شواهد نفي التجسيم عن هشام:

الف- كلام هشام بن الحكم الذي يرويهِ الكليني في باب (إبطال الرؤية). يستدل فيه هشام على استحالة رؤية الله سبحانه مطلقا. بأن الرؤية لا يمكن أن تتعلق إلا بالأجسام. ويقول في آخره: «تعالى الله أن يشببه شيء». فلو كان هشام ممن يقول بالجسمية لما أمكنه أن يقول ما قال.

ب- كلامه الذي يرويهِ الصدوق عنه أجاب به من سأله: بم عرفت ربك؟ فقال: «عرفت الله جل جلاله بنفسي. لأنها أقرب الأشياء إلي» ثم استدل بتركيب جسمه واختلاف أجزائه. واحكام صنعتها. فيقول: «استحال في العقول وجود تأليف لا مؤلف له. وثبات صورة لا مصور لها. فعلمت أن لها خالقا خلقها. ومصورا صورها. مخالفا لها في جميع جهاتها ...

## كلام هشام في الامامة

يوصف هشام بأنه ممن فتق الكلام في الامامة ويتمحور كلامه في أن الامامة لطف من الله تعالى وأن لإمام معصوم وأن الإمام منصوب عليه بنص من الله تعالى. وهذه الخطوات الثلاث المتعاقبة في الامامة هي الأساس في كلام المتكلمين الاماميين لاحقاً في بحثهم لمسألة الامامة. سئل هشام عن الإمام أهو معصوم؟ وأجاب بنعم. قال السائل لهشام: فما صفة العصمة فيه. وبأي شيء تعرف؟ قال هشام: إن جميع الذنوب لها أربعة أوجه. لا خامس لها: الحرص والحسد والغضب والشهوة. فهذه منفية عنه ... الخ. وقال أيضاً مستدلاً على عصمة الامام: إن لم يكن معصوماً لم يؤمن أن يدخل فيما دخل فيه غيره من الذنوب. فيحتاج إلى من يقيم عليه الحد. كما يقيم على غيره. وإذا دخل في الذنوب لم يؤمن أن يكتم على جاره وحبيبه وقريبه وصديقه ...

## مؤلفاته

كما يذكر المترجمون لهشام من الكتب والرسائل التي ألفها ما يربو على الثلاثين. وما يرجع منها إلى التوحيد وفروعه:

١- كتاب التوحيد. ٢- كتاب المجالس في التوحيد. ٣- كتاب الشيخ والغلام في التوحيد. ٤- كتاب الرد على ارسطاطاليس في التوحيد. ٥- كتاب الدلالات على حدث (حدوث) الأجسام. ٦- كتاب الرد على الزنادقة. ٧- كتاب الرد على أصحاب الاثني عشر. ٨- كتاب الرد على اصحاب الطبايع. والمقصود منهم اللذين كانوا يقولون بأن الأشياء بطبعها ولا تحتاج في وجودها إلى الله سبحانه الذي يكون هو الخالق لها. ٩- كتاب في الجبر والقدر. ١٠- كتاب القدر. ١١- كتاب الاستطاعة.

١٢- كتاب المعرفة. ١٣- كتاب اللطاف. ١٤- كتاب الألفاظ.

## معالم مناظراته.

١- الامام هو المرجع : يظهر أن هشاماً في مناظراته مع الخصوم كان يتقوى بأستاذه الصادق ويرجع إليه إن لم يجد جواباً. «فيروى أن أبا الهذيل العلاف قال لهشام بن الحكم: أناظرك على أنك إن غلبتني رجعت إلى مذهبك وإن غلبتك رجعت إلى مذهبي. فقال هشام ما أنصفتني بل أناظرك على أنني إن غلبتك. رجعت إلى مذهبي. وإن غلبتني رجعت إلى إمامي.

٢- المناظرة مع الزنادقة : ربما تناظر مع ابي شاکر الديرصاني، فكان البحث ينتهي الى مدى لم يكن لهشام فيها من جواب - كما يحدثنا هشام - ويقول: انه اجتمع بالصادق عليه السلام بالمدينة وتعلم منه الجواب. ثم اجتمع بأبي شاکر بالكوفة فنذكر له الجواب. فقال الديرصاني: هذه نقلت من الحجاز.

٣- الامامة أكثر اهتماما، يرى هشام أن الإمامة واجبة عقلا ، لأن الخلق بحاجة إلى من يرشدهم إلى الأصلح ويبعدهم عن المعصية والخطأ والحيرة والشك والاختلاف. وقد عبر هذه القاعدة في مناظرة طريفة له مع عمرو بن عبيد المعتزلي الذي كان في حلقة كبيرة في مسجد البصرة يوم الجمعة. حيث سأله هشام: ألك عين؟ قال عمرو بن عبيد: نعم . قال هشام فما تصنع بها ؟ قال عمرو أرى بها الألوان والأشخاص . قال هشام: ألك أنف ؟ قال عمرو: نعم . قال هشام فما تصنع به ؟ قال عمرو أشم به الرائحة . قال هشام: ألك فم ؟ قال عمرو: نعم . قال هشام فما تصنع به ؟ قال عمرو أذوق به الطعام. قال هشام: ألك أذن ؟ قال عمرو: نعم. قال هشام: فما تصنع بها ؟ قال عمرو: أسمع بها الأصوات. قال هشام: ألك قلب (عقل) ؟ قال عمرو: نعم. قال هشام: فما تصنع به ؟ قال عمرو أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح والحواس. قال هشام أوليس في هذه الجوارح غنى عن القلب ؟ قال عمرو: لا . قال هشام: وكيف ذلك وهي صحيحة وسليمة ؟ قال عمرو: يا بني، إن الجوارح إذا شكت في شيء شمته أو رأته أو ذاقته أو سمعته، ردتته إلى القلب فيستيقن اليقين ويبطل الشك. قال هشام: فإنما أقام الله القلب لشك الجوارح ؟ قال عمرو: نعم . قال هشام: لا بد من القلب والا لم تستيقن الجوارح ؟ قال عمرو: نعم. قال هشام يا أبا مروان، فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل إماما يصحح لها الصحيح ويتيقن به ما شك فيه، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم. لا يقيم لهم إماما يردون إليه شكهم وحيرتهم. ويقيم لك إماما لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك؟ فسكت عمرو ولم يقل لهشام شيئا . ويظهر أن هذه الرواية قد اشتهرت عن هشام. فيقول المسعودي إن أبا عيسى الوراق قد ذكرها في كتابه المجالس.